الفصل الثانى

اسبينوزا

- تمهيد
- حياته وأعماله
- المنهج
- الجوهر

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

الصورة التقليدية لشخصية "اسبينوزا" هى صورة الفيلسوف المعتكف عن الناس، المنعزل عن العالم، الغارق فى التأمل بين جدران بيته، بعيداً عن صخب العالم الخارجى وضجيجه. هذه الصورة هى التى يرسمها له أصحاب الاتجاهات التقليدية المحافظة، وقد اتخذت هذه الاتجاهات شتى الصور ووصل بعضها إلى تشبيه فلسفته بالمذهب الهندوسى ؛ والتقريب بين صفات الجوهر وبين "براهما"(*)، وبين رأيه فى النفس والآراء الهندوسية فى الروح.

لكن البحث الحديث فى حياة "اسبينوزا" قد غير هذه الصورة التقليدية تغييراً تاماً، إذ أكد كثير من الكتّاب أن "اسبينوزا" كان أبعد الناس عن أن يكون صوفياً غارقاً فى التأملات، أو مفكراً منعزلاً منطوياً على نفسه ؛ وإنما كان بعيداً كل البعد عن أن يكون ناسكاً هندياً غارقاً فى التفكير فى الأزلية إلى حد نسيان الحاضر. فقد كان – على عكس ذلك – رجل عمل، حريصاً على أن يضمن النجاح لأفكاره التى عدها خليقة بتغيير وجه الأرض. ومنذ ذلك الحين برزت صورة "اسبينوزا" بوصفه فيلسوفاً شارك مشاركة إيجابية فى مشاكل عصره [1].

أما المفكرون اليهود، فقد استغلوا كون "اسبينوزا" قد ولد لأبوين يهوديين فحاولوا أن ينسبوا إليه شتى الأفكار المناصرة لدعواتهم، متجاهلين تماماً حقيقة خروجه على الطائفة اليهودية وطرده منها، وإعلانه العداء الصريح لها .

كل هذا يقال على الفيلسوف الذى كان أكثر من غيره حرصاً على الكتابة بأسلوب غير شخصى، وعلى تجنب الإهابة بالعوامل الذاتية فى كتاباته. فهو يريد

(*) "براهما" Brahma هو مصطلح فى الديانة الهندوسية يدل على الحقيقة النهائية فى العبادة، وهو اسم محايد من حيث الجنس ؛ وهو يشير إلى القوة المقدسة الكامنة فى طقوس الأضاحى التى يقوم بها رجال الدين ويسمون "البراهمة" .

أن يكتـب كمـا لـو لم يكـن لشخـصيته الفرديـة أيـة أهميـة بالنـسبة إلى الحقـائق الموضوعية الواضحة التى كان يعرضها .

وهكذا، كان "اسبينوزا" يدعونا إلى تجاهل تفاصيل حياته عند الكتابة عنه – أعنى عرضها بوصفها أفكاراً خالصة لا أهمية لشخصية كاتبها أو للظروف الخاصة التى عاش فيها. كما أن من التعليلات التى يمكن أن نفسر بها ظهور معظم كتبه بغير اسمه الحقيقى، أو دون اسم على الإطلاق. أنه كان يود من قارئه أن يتأمل أفكاره خالصة دون أن يشغل نفسه بشخصية الكاتب أو عصره [2].

* * * *

حياتــه وأعـمالـه

ولد "اسبينوزا" فى أمستردام فى 24 نوفمبر عام 1632 من أسرة يهودية هاجرت إلى هولندا من أسبانيا فراراً مما كان اليهود يلقونه فى أسبانيا من اضطهاد شديد. وحصل على تربية جيدة واسعة. وفى كنيسة اليهود فى أمستردام درس "التلمود" (*) كذلك درس مؤلفات "موسى بن ميمون"، وبعض علماء اللاهوت اليهودى فى العصور الوسطى. كذلك تعلم اللغة اللاتينية وكان يتقن الأسبانية والعبرية ويلم بالفرنسية والإيطالية ؛ كما قرأ مؤلفات "برونو" و "ديكارت".

بدأت مظاهر التمرد ضد العقيدة اليهودية تتجلى عند "اسبينوزا" لما بلغ الثالثة والعشرين من عمره، فحاول بعض رجال الطائفة اليهودية استمالته تحت إغراء المال، فرفض ؛ وحاول أحدهم قتله ولكن أخفقت هذه المحاولة لكن الكنيسة اليهودية فى أمستردام اتهمته بالإلحاد، وأصدرت عام 1656 قراراً بطرده من الكنيسة، فقاطعته الطائفة اليهودية وأصدقاؤه اليهود وأسرته أيضاً. وتلقى "اسبينوزا" نبأ إبعاده عن الكنيسة اليهودية بهدوء، وغير اسمه اليهودى "باروخ" إلى مرادفه اللاتينى "مبارك". وكان يعيش من صقل العدسات البصرية، وظل على هذه الحال مغموراً طوال أربع سنوات من عام 1656 – 1660، بعدها انتقل إلى ضاحية من ضواحى لندن، فتجمعت حوله دائرة ضيقة من المتفلسفين وعاش من مهنته، وتوفى بمدينة لاهاى عام 1677 [3].

(*) "التلمود" مجموعة تفسيرات وشروح وأخبار وأحكام وضعها حكماء اليهود وفقهاؤهم، ويتضمن أحوال اليهود وصلواتهم وآراءهم وعاداتهم وتواريخهم وقصصهم. ويزيد على عشرين مجلداً، وينقسم إلى قسمين: "المشنا" و "الجمارا". ويوجد تلمودان: تلمود "أورشليمى" (وقد انجز فى طبرية) وتلمود "بابلى" (انجز فى بغداد) و"المشنا" هو النص الذى ينبغى أن يحفظ عن ظهر قلب، و "الجمارا" هى الحاشية وغالباً ما تتضمن الأحكام النهائية.

وكان أول ما كتب عام 1660 رسالة فى "مبادئ فلسفة ديكارت" مبرهنة على الطريقة الهندسية، كتمهيد ومدخل لفلسفته الخاصة. ثم عرض فلسفته فى "الرسالة الموجزة فى الله والإنسان وسعادته" أيضاً عام 1660 كتبها لأصدقائه المسيحيين ولم تنشر. ثم وضع رسالة "فى إصلاح العقل" هى بمثابة مقدمة فى المنهج وفى قيمة المعرفة، أو هى من طراز "المنطق الجديد" لفرنسيس بيكون، و "قواعد لهداية العقل" و"المقال فى المنهج" لديكارت، و "البحث عن الحقيقة" لمالبرانش. وكلها كتب تريد الاستغناء عن منطق "أرسطو" وإقامة المنهج العلمى. غير أن "اسبينوزا" ترك الرسالة ناقصة، فنشرت كما هى بعد وفاته، وكان الجدل شديداً حول مسائل الوحى والنبوءة والمعجزات وحرية الاعتقاد، فدون فى ذلك "الرسالة اللاهوتية السياسية" (*) نشرت عام 1670. ثم كتاب "الأخلاق" ولم ينشر إلا بعد وفاته وقد نهج فيه المنهج الهندسى، وهو المنهج الذى يفسر به وحدة الوجود، والكتاب ينقسم إلى خمس مقالات:

الأولى: فى الله .

الثانية: فى النفس وطبيعتها وأصلها.

الثالثة: فى الانفعالات أصلها وطبيعتها.

الرابعة: فى عبودية الإنسان أو فى قوة الانفعالات.

الخامسة: فى قوة العقل أو فى حرية الإنسان .

والأخلاق موضوع المقالتين الأخيرتين، ولكن "اسبينوزا" أطلق هذا الاسم على الكتاب كله لأن غاية النظر عنده العمل، ولأن اتجاهه الأساسى أخلاقى [4].

(*) تهدف "الرسالة اللاهوتية السياسية" عند "اسبينوزا" إلى أن العقل هو أساس الإيمان وأن حرية الفكر لا تمثل خطراً على سلامة الدولة. أى أن هناك صلة بين الدين والدولة، أو كما يقول "اسبينوزا"، بين اللاهوت والسياسة، فاللاهوت ليس نظرية فى الله فقط بل ينشأ عنه نظام اجتماعى كذلك، وليس الدين عقائد فحسب بل ينشأ عنه نظام سياسى.

المنهـــج

لم يكن "اسبينوزا" أول من ربط بين المنهج الهندسى وبين البحث الفلسفى، فقد استخدم هذا المنهج فى العصور القديمة وفى كتابات "فورفوريوس" و "يرقلس" وكان طريقة شائعة للشرح والبرهان بين فلاسفة العصور الوسطى، أما عصر "اسبينوزا" فقد أدت نهضة العلوم الرياضية، ونجاحها الهائل فى ميدانى الفلك والفيزياء، إلى دعوة الكثير من المفكرين (مثل ديكارت وليبنتز) إلى الاقتداء بالدقة الرياضية فى صياغة الأفكار الفلسفية، وإلى جعل الرياضة أنموذجاً ومثلاً أعلى للمعرفة البشرية فى كافة ميادينها [5].

وقد استخدم "اسبينوزا" المنهج الهندسى فى كتابيه "مبادئ الفلسفة الديكارتية" و "الأخلاق"، وكان الغرض من استخدامه – كما يقول – أنه أراد أن يستبعد من تفكيره كل عامل شخصى ؛ ولكى يبحث فى انفعالات البشر بنفس الموضوعية التى يبحث بها عالم الهندسة فى النقط والخطوط والسطوح.

★★ نظرية المعرفة

يرى "اسبينوزا" أنه يجب التفكير فى وسيلة لشفاء العقل وتطهيره كى يجيد معرفة الأشياء. وهذه الوسيلة هى التمييز بين ضروب المعرفة والاهتداء إلى المعرفة الحقة. وهنا يقسم "اسبينوزا" المعرفة إلى ثلاثة :

النوع الأول: وتنقسم إلى معرفة نكونها عن الأشياء بواسطة الحواس، وتتمثل فيها الأشياء جزئية مختلطة لا ترتيب فيها، ثم معرفة سماعية تؤدى بنا إلى تكوين فكرة عن الأشياء مشابهة لما نتخيله عنها .

النوع الثانى: وهو ينشأ من وجود أفكار لدينا مشتركة بين جميع الناس، وأفكار كافية عن خصائص الأشياء، ويسميها معرفة بـ "العقل".

النوع الثالث: وهو "الحدس" ينتقل من فكرة كافية عن الماهية المطلقة لبعض صفات الله إلى المعرفة الكافية لماهية الأشياء [6].

ويعرض "اسبينوزا" فى كتابه "إصلاح العقل" أنواع المعرفة هذه على نحو مختلف، فيقسمها أربعة أقسام :

1ـ معرفة سماعية .

2ـ معرفة مستمدة من التجربة .

3ـ المعرفة الناشئة من الاستدلال.

4ـ المعرفة الحدسية .

ومع ذلك، فالتقسيم الثلاثى هو الأكثر شيوعاً فى كتابات "اسبينوزا" إذ إنه فى معظم كتاباته يدمج النوعين الأولين فى التقسيم الرباعى ليكون منهما نوعاً واحداً ثم هو يربط بين المعرفة العقلية والمعرفة الحدسية .

إن النوع الثالث من المعرفة يعتمد على العقل بوصفه علته الشكلية، بقدر ما يكون العقل ذاته أزلياً .

* * * *

obeikan.com

الجـــوهـــر

يـذهب "اسـبينوزا" إلى أن فـى الكـون حقيقـة شـاملة يـسميها جـوهراً Substance وليس يعنى بهذه الكلمة مدلولها المباشر الذى يفهم منها، وهو مادة الشىء أو عنصره (كقولنا مثلاً إن الخشب مادة هذا المكتب) ولكنه يقصد بها الحقيقة الكائنة وراء الأشياء.

يقول:

« أعنى بالجوهر ما يوجد فى ذاته، ويتصور بذاته، أى ما لا نحتاج فى تكوين تصور له إلى تصور أى شىء أخر ».

ويقول أيضاً :

« إن الجوهر بهذا المعنى لا يمكن إلا أن يكون واحداً، أو على الأصح لا وجود إلا لجوهر واحد لا يخرج عنه شىء ».

ويتضح من التعريفات السابقة أن الجوهر عند "اسبينوزا" لا متناهياً كما أنه أزلى. وتعريف "اسبينوزا" للأزلية هو الوجود ذاته وهو بهذا يجعل من الوجود مرادفاً للحقيقة الأزلية التى لا يمكن تصورها من خلال فكرة المدة أو الاستمرار أو الزمان. فضلاً عن أن "الجوهر" موجود بالضرورة، أى أن الوجود ينتمى إلى طبيعة الجوهر، ومعنى الانتماء إلى طبيعة الجوهر أنه لم يلحق به بفضل شىء خارج عنه، وأنه ليس شيئاً اكتسبه الجوهر من الخارج أى أن الجوهر ليس مخلوقاً [7].

ويقرر "اسبينوزا" أننا ندرك من بين الصفات الإلهية صفتين هما "الفكر" و "الامتداد"، أما سائر الصفات الإلهية فلا نستطيع أن نقول عنها شيئاً لأننا لا نستطيع أن نعرفها. كذلك ينبغى أن نلاحظ أننا حين ننتقل من النظر فى الله بوصفه جوهراً لا متناهياً ذا صفات إلهية إلى النظر فى أحوال الله، فإن العقل

ينتقل من الطبيعة الطابعة إلى الطبيعة المطبوعة، أى من اللّه فى ذاته إلى الخلق – مع عدم التمييز بين اللّه والخلق .

والطبيعة الطابعة هى "الجوهر" أعنى صفاته اللامتناهية ومن بين هذه الصفات – الفكر والامتداد. أما الطبيعة المطبوعة فتشمل كل الأحوال ابتداء من تلك التى تستنبط مباشرة من الصفات [8]. ويعرف "اسبينوزا" الصفة بأنها:

« **ما يدركه العقل فى الجوهر مكوناً لماهيته** ».

وكل صفة تظهر فى أحوال أو ظواهر – كما سبق القول، والحال هو ما يتقوم شىء آخر ويتصور بهذا الشىء .

وكثيراً ما يخطئ البعض فهم فلسفة "اسبينوزا" التى توحد بين اللّه والطبيعة فيذهب بهم الظن أن "اسبينوزا" يريد بذلك أن يصغر من شأن اللّه وينزله إلى مرتبة الطبيعة. والواقع كما يقول هو :

« **إننى فى حقيقة الأمر لم أهبط بمنزلة الإله إلى مستوى الطبيعة، بل رفعت الطبيعة إلى مستوى اللّه** ».

ويرى "ولف Wolf" فى مقاله عن "اسبينوزا" بدل من أن تكون الطبيعة فى ناحية وأن يكون إله فوق الطبيعة فى ناحية أخرى، فقد ذهب "اسبينوزا" إلى أن للحقيقة عالماً واحداً هو الطبيعة واللّه فى آن واحد. وليس فى هذا العالم مكان لما فوق الطبيعة. والواقع أن اللّه والطبيعة ينطبق أحدهما على الآخر إذا تصورنا أن كلا منهما هو الكائن الكامل الذى أوجد نفسه بنفسه .

* * * *

مراجع الفصل الثانى من الباب الثانى

(1) راجع فى ذلك: د. فؤاد زكريا، اسبينوزا، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص ص2 – 3.

أنظر أيضًا :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 199.

قارن أيضًا :

Nadler , Steven M, Spinoza : A life , Cambridge , uk , New York, Combridge university Press , 1999 .

(2) د. فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 15.

(3) د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص ص136– 137.

انظر أيضاً: د. زكى نجيب محمود، وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1983، ص87.

قارن كذلك :

Don Garrett , The Cambridge Companion to Spinoza , Cambridge , New York , Cambridge university Press , 1996 .

(4) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص107.

قارن كذلك

Spinoza , The Ethics and other Works , edited and Trans by , Edwin curley , Princeton university press , 1994 .

(5) د. فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص41.

(6) المرجع السابق، ص88.

انظر أيضاً: يوسف كرم، المرجع السابق، ص108.

قارن كذلك :

obeikan.com

Harold Hoffding, History of Modern Philosophy, Dover Pubns, 2000, p. 80.

(7) د. فؤاد زكريا، اسبينوزا، ص ص75 – 76.

(8) د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص139.

* * * *

obeikan.com